الطاحونة والبئر وأمينة

عزة كمال

من يمتلك الطاحونة فإنه يملك مالًا وفيرًا، يقول عمي لأبي هذا الكلام، يرد أبي: وما أدراك حين تملك المال الوفير بأنك تمتلك السعادة؟

يواصل عمي الحديث ويقول:

-يا سلام لو تزوجت ابنة صاحب الطاحونة لكان كل هذا لي.

يقول أبي :بص على قدك يا أخي؛ فربما يخسر الواحد منا الكثير إذا تطلع لما ليس يملكه.

يرد عمي- :مستعد أن أخسر أي شيء حتى أصل لغايتي.

حدث هذا أثناء ما كنا نركب عربتنا التي يجرها حمارينا الضعيفين، أنا وأخي وأمي نقبع فوق أجوال الغلة نذهب لطَحنها فعما قريب سيحُل الشتاء وعلينا أن ندخر دقيقًا يكفي لتلك الفترة التي لا تخلو من تقلبات، يتبادل أبي مع عمي أطراف الحديث ونحن نتوجه بناظرينا صوب الطريق المؤدية إلى الطاحونة، وها هي دقاتها تعلو في الفضاء فتُطرب لها آذاننا.

نسعد ونحن نشب نمسك القادوس بأيدينا ونرى حبات القمح تبعد شيئًا فشيئًا حتى لا نطالها فتستحيل إلى ذرات من الدقيق يملأ الكثير منه جلباب أمي و وجهها وهي تقف في الأسفل تمسك بعصا صغيرة تزج بها في نهاية القادوس تحركها يمينًا ويسارًا لتمكين الدقيق من الهطول في جوالها، ترفع حاجبيها وتقول لعامل القادوس (نعَّم شوية يا سيد) يدير عجلة صغيرة فترضى أمي وتستمر في عملها ثم تنادي على أبي ليأتي وعمي يحملان جوالًا تلو آخر.

نسعد أكثر حين نذهب إلى عربتنا نأخذ القليل من الذرة غير المقشور ونعطيه لأمينة التي تعيش هي وزوجها المسن بحجرة في الطاحونة ، يقال أنهما يحرسان المكان نعطيها الذرة فتُعطينا الترمس في قرطاسين، نأخذ ترمسنا، ندخل إلى أمي وتنادي عليها: (اتوصي يا أمينة بالعيال) فتشير بيدها الممتلئه بالعروق أن تعاليا نذهب فتعطينا حبتين أو ثلاث في أيدينا وتنظر لأخي وتقول:

)- ابتعد عن السير وانتِ أوعي تروحي ناحية البير).

ينظر أخي من تلك الفتحات الصغيرة تحت الحائط يرى التروس الكبيرة وتلك السيور التي تجري وخيوط العنكبوت التي تتدلى وأشعة الشمس تخترق الشقوق، فتصنع مع تلك الخيوط خيالات تتحرك علي أنغام ثابتة مع حركة تلك السيور والتروس أسفل القادوس،

تصرخ أمينة:

-ابتعد! ، نخاف من صوتها فتسقط حبات الترمس على الأرض تمتزج بالأوساخ نلملمها ونذهب إلى الخلف نغسلها في ذلك الصنبور من الماء الساخن

الذي لا يتوقف مائه إلا مع توقف الطاحونة، لا نعرف لماذا تسخن مياهه لكننا نسعد أكثروأكثرحين نضع أقدامنا في حوض الماء الساخن، ونمسح على رؤوسنا لا نعرف من أين تأتي مياه الصنبور لكننا نعرف إلى أين تذهب نتابعها مع قشور الترمس في الماء وقد حفرت لها مجري في تلك الأرض خلف الطاحونة حيث يكسو البياض مساحة كبيرة تنتهي إلى هوّة عميقة ببئرراكدة مياهه.

أرتعد خوفًا والبئر تجذبني نحوها، وأنا لا أقدر علي الرجوع خلفًا لا أعرف من أين تأتي أمينة تتمثل أمامي تضربني بالعصا أنا اذهبي لأمك، أذهب باكية وأنا أسُب أمينة أمام أمي فتقول:

-(كترخيرها يا ربت تسمعي كلامها).

حين نهم بالرحيل تنادي علينا تلك السيدة تعطينا الترمس بلا مقابل ، أنظر إليها أراها تحمل في وجهها نفس عيني أمي، نصعد العربة وننظر نحوها فنرى القطط من حولها لا تظهر إلا في آخر النهار وهي تطعمهم كما تطعم الأم صغارها.

نسأل أمي عن البئروالأرض البيضاء حولها فتقول هي دموع ساكنيها تحولت لِملح،

وأما التروس والقادوس فإنها لا تتحرك إلا بعد أن تظفّر بدم آدمي،وحتى أن أمينة نفسها سمعنا أنها فقدت ولد وبنت في تلك البئروعلى ذلك السير، من المؤكد أن أمي تقول هذا من باب اخافتنا ولوكان حقيقة ما قالته أبدًا.

أمطرت قبل أوانها وعلا صوت الرعد واشتدت العواصف وغابت الشمس تحت أكوام الغيوم، صوت أبي يعلو حين اكتشف أننا فقدنا جوالًا من الدقيق ، أصر على الخروج في ذلك الجو العاصف رغم تحذير أمي وغاب تحت المطر و العاصفة الصارخة، خرج عمي وراءه وبعد فترة يعود عمي لكن أبي لم يعد أبدًا.

السنوات الثلاث التي تلت غياب أبي كأنها ثلاثون أو يزيد علي عمر أمي، امتلأت يدها بالعروق البارزة وأصبحت عيناها نفس عين أمينة حتى أنني وأخي بدأنا نخاف، نرى عين أمي متمثلة في نظرة أمينة حين نذهب إلى الطاحونة مع عمي ونرى عين أمينة متمثلة في نظرة أمي حين نعود إلى البيت.

بعد رحيل أمي، انتقلنا مع عمي إلى بيت زوجته ابنة صاحب الطاحونة التي تعيش مع ابنتها،لا نعرف ظروف زواج عمي من تلك السيدة لكننا نعرف أنها غريبة الأطوار أراها تحدق في أخي تقترب منه، تتمسح فيه فلقد أصبح شابٌ يافعًا، أراها وإبنتها تحاولان استمالته، لا أعرف إن كان قد استجاب لإحداهن أم لا ،عرفت فيما بعد حين سالت دموعي فصارت مِلحا حول تلك البئر خلف الطاحونة، لأسمع أمينة التي بدأت ملامحها تتضح الآن، فأعرف من تكون؟!

تلتفت في حزن وهي تطعم قططها وتعدد وهي تنظر لزوجها: (بكيت وطال البكا ولا عاد يفيد دمعي، يا حزن قلبي أنا على كل من فاتني).

فيرفع الرجل المسن رأسه المتدلي بين فخذيه تتضح ملامحه فأعرف من يكون!